الباب الثاني

وقفة فلسفية أمام مشاركة اليهود في الحركة الاستشراقية

الفصل الأول

القواسم المشتركة بين المستشرقين اليهود

تمهيد:

بعد دراسة حياة المستشرقين اليهود، والوقوف أمام أعمالهم العلمية والإشادة بجهودهم؛ سواء أكان في مجال البحث العلمي والتأليف أو في مجال تحقيق المخطوطات ونشرها، وتحليل بعض مؤلفاتهم، وسبر غورها وتقييمها تقييما موضوعيا، والإشارة إلى الجانب الإيجابي من التراث الضخم الذي خلفوه، والدعوة إلى الاستفادة منه، والتنبيه إلي بعض الأخطاء التي وقعوا فيها، لمحاولة تصحيحها ولفت نظر الباحثين إلى هذه الأخطاء الفجة والآراء المبتسرة والأفكار المغرضة للاستدراك عليها وتفنيد مزاعمهم والتصدي لهم بذات السلاح أعني استعمال أسس المنهج العلمي، دون تعصب أو استعمال لغة خطابية متشنجة، وهذه جدلية البحث العلمي، وحقيقة الإنسان الذي يرتفع إلى أعلى بالقيم الأخلاقية والمثل العليا ويهبط إلى أسفل سافلين، بسب رغباته الدفينة وشهواته السفلية.

ومن خلال هذه الدراسة والاستقراء العلمي لهذا المجهود الضخم، ومحاولة تفكيك بنيته العلمية واستنتاج ما هو مضمر تحت السطح، يستطيع القارئ المدقق أن يدرك الخيط الرفيع الذي يسلك هؤلاء القوم في عقد واحد، ويرى الحبل السري الذي يجمعهم في رحم واسع.

ونود التنبيه أننا استنتجنا هذه القواسم من خلال التحليل العلمي لشخصياتهم، وتتبع سيرة حياتهم ورحلاتهم والقراءة العميقة لإنتاجهم العلمي، وتتبع الدوافع الكامنة وراء مشاركتهم في حركة الاستشراق، واستشهادنا بآراء الدارسين والباحثين، جاء لاحقا تأييدا لما توصلنا إليه بمجهودنا.

ونحن بسبيل عرض أهم القواسم المشتركة التي توصلنا إليها و تعد سمات أساسية واضحة في الاستشراق اليهودي.

أولا: يتميز معظم هؤلاء المستشرقين بالإرادة القوية والحركة النشطة والهمة العالية وارتفاع سقف طموحهم وصراعهم مع مشكلات الحياة، وإصرارهم على بلوغ الهدف

الذي رسموه لمستقبلهم مهما كلفهم من تعب ونصب وجهد وعناء، ومحاولتهم المتكررة للتغلب على المشكلات العويصة التي تقابلهم - وهي من لوازم حركة الحياة -، وعندهم صبر طويل وجلد واضح لتحمل المشاق في سبيل الغاية التي سعوا إليها.

وهنا مسألة نحب أن نجليها، أننا نتكلم عن فئة مميزة داخل المجتمع قطعت شوطا في السلم التعليمي، وحققت تقدما في ميدان البحث العلمي، ومكانة مرموقة في طبقات المجتمع.ولا نتكلم عن عوام الناس الذين يكنسون الطريق وينقذون الغريق ويحضرون السوق ويطفئون الحريق على حد تعبير أبي حيان التوحيدي (٤٠٣هـ) الذين يجيئون إلى الحياة ولا يضيفون شيئا جديدا، أو يقدمون فكرة طريفة تساعد في تمدن الأمة بل يأتون ويذهبون وهم مجرد كم مهمل لا يقدمون ولا يؤخرون في تاريخ الأمم أو حركة التاريخ.

وإذا كان علم النفس يقر بحقيقة الفروق الفردية بين البشر، أي وجود تفاوت كبير في صفاتهم الجسمية وقدراتهم عقلية وسماتهم الخلقية والاجتماعية [1]، فلا شك أن هذه الفئة تتميز بالقدرات العقلية الممتازة والذكاء المرتفع والملكات الفائقة، والطموح الواسع، والمواهب المتعددة، وهذا يساعدهم على المضي في هذا الطريق الوعر والمرتقي الصعب ومن ثم يمثلون خلاصة العقول، وصفوة الرجال، وكبار الباحثين.

ثانيا: إقبالهم على تعلم اللغات بعامة واللغات السامية بخاصة؛ وهذا واضح من خلال ما عرضناه، فأغلبهم يجيد أكثر من لغة، فعلاوة على لغة الدولة التي يعيش فيها المستشرق نجده يتقن ثلاث لغات أخري أو أكثر، أضف إلى ذلك دراستهم الموسعة للغة العربية وسفرهم إلى الدول العربية والمكوث بها لإجادة اللغة وسبر غورها ومعرفة تراكيبها، وفهم دلالة مفرداتها، وتعدد معانيها، ودراسة نحوها وصرفها، هذا من جهة

ومن جهة أخرى؛ جهودهم الواسعة في دراسة اللغة العبرية، والقيام بتلقينها لأبنائهم وتدريسها في معاهدهم، ثم الكتابة بها وترجمة التراث العربي الإسلامي إليها بخاصة والتراث العالمي بعامة، والاعتزاز بها ومحاولة نشرها وبعثها من حفريات التاريخ،

(١) أحمد عزت راجح : أصول علم النفس ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٨، ص ٣٧٣

ومن جهة ثالثة؛ المساهمة الفعالة والأنشطة الإيجابية في إنشاء أقسام لتدريس العبرية داخل المؤسسات العلمية والجامعات التي التحقوا بها وحث المسؤولين عن ذلك والإصرار على تحقيق أهدافهم.

ونستطيع أن نقرر أن هذه ميزة يتميز بها الاستشراق اليهودي، فإتقانهم لهذه اللغات يقف وراءه هدف واضح وغاية يسعون لتحقيقها، وهو جمع كل ما يتعلق بما أنتجه علمائهم وفلاسفتهم وأطبائهم وأدبائهم، من بطون الحفريات ولفائف المخطوطات، وجمع هذا التراث، وصنع تاريخ لهم، وقد ذهبوا كافة في هذا الاتجاه، كل على حسب تخصصه وطاقته.

ثالثا: النظرة العنصرية للآخر؛ يسيطر على اليهود النظرة العنصرية لأنبيائهم وقومهم وعلمائهم وتاريخهم، والإعلاء من شأنه قدر ما تساعدهم أحوالهم وتسعفهم ذاكرتهم وتمدهم مخطوطاتهم، والاعتقاد الجازم أنهم متفردون وغيرهم تبع لهم، والشعور بالتفوق والاستعلاء على الأمم الأخرى.

يقول أحد الباحثين: «يعد الاستشراق من الناحية السيكولوجية شكلا من أشكال الخيلاء المرضي»[1].

فكما رأينا أن فيلون يعتقد أن سبب تفوق الفلسفة اليونانية بعامة وفلسفة أفلاطون وأرسطو بخاصة أنهم اقتبسوا فلسفتهم من تعاليم موسى (عليه السلام)ومن التوراة، وأن الترجمات العبرية للتراث اليوناني هي التي أدت إلى النهضة الأوربية، وليست الترجمات العربية، وأن الأطباء اليهود هم الذين اكتشفوا الأمراض وشخصوا العلاج لها كأنما موسى بن ميمون هو أول وآخر أطباء الدنيا، وهكذا في كل مجال أسهموا فيه يعتقدون أنهم هم المبرزين والمتفوقين والجميع استنسخ علمه من علمهم، واقتبس فلسفته من فلاسفتهم وأخذ طبه من أطبائهم.

ونقول إن علماء اليهود بجميع أصنافهم وفنونهم؛ فلاسفة، أطباء، تراجمة صيادلة،

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص ١٤٢

عاشوا في ظلال الحضارة العربية الإسلامية، وعاصروا نهضتها في مجال العلوم الدينية، وتأسيس علوم الفلسفة والطب والكيمياء والرياضيات وأنهم تعلموا لغتها وحفظوا شعرها وتأثروا بفنون أدبها، و تشربوا علومها وتأثروا بمناهجها، هذه نقطة،

الثانية أنهم كانوا ضمن منظومة العلماء المسيحيين والمسلمين والأجناس المتعددة التي شاركت أيضا في تشييد قواعد هذه الحضارة سواء أكانوا عربا أو غير عرب، فالحضارة العربية الإسلامية هي نتاج لكل الشعوب التي انضوت تحت لوائها ونطقت بلغتها العربية وتشربت ثقافتها، فمثلا نحن نرى أن كليوبترا (ت٣١ ق.م) مصرية؛ على الرغم من أن أصولها يونانية بطلمية، ولكنها ولدت وعاشت وتشربت الثقافة المصرية في القرن الأول قبل الميلاد. ومحمد علي باشا الألباني، عربي مسلم عاش في ظلال الحضارة العربية الإسلامية، ودوره مشهود في تأسيس مصر الحديثة، وإدخال العلوم الحديثة وإلحاقها بمدنية عصره.

النقطة الثالثة، إن «الإسلام من أكثر الديانات ملائمة لاكتشافات العلم ومن أعظمها تهذيبا للنفوس وحملا على العدل والتسامح والإحسان» [1] والحضارة العربية الإسلامية هي التي آوتهم واتسع صدرها لهم، وتسامحت معهم ودعتهم للمشاركة في بناء المدنية، حتى تقلد بعضهم مناصب رفيعة كما رأينا وقربهم الخلفاء في بلاطهم؛ الأمويون والعباسيون والفاطميون (يعقوب ابن كلس)والأيوبيون (موسى بن ميمون)، واستخدموهم في وظائف متعددة أطباء ومترجمين وكتبة ووزراء، وكلفوهم بمهام جسيمة، ولم ينظروا إلى ديانتهم كي يستبعدوهم من المشاركة السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية.

يقول آدم متز (١٨٦٩- ١٩١٧): تولى الوزارة بالقاهرة منذ عام (٤٣٦-٤٣٩/ ١٠٤٤-١٠٤٧)أبو نصر صدقة يوسف الفلاحي، وكان يهوديا فأسلم ويدير الدولة معه أبو سعد التستري اليهودي، ولذلك قال الشاعر المصري الحسن بن خاقان:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم قد ملكوا

(١) حضارة العرب ص ١٢٦

العـــــز فـيهم والمـال عنـدهمو ومـــنهم المستشـــار والملـــك
يـا أهـل مصر إني نصـحت لكـم تهـودوا قـد تهـود الفلـك[١]

رابعا: الكراهية الدفينة والعداء المتأصل للعرب والمسلمين بخاصة والأمم الأخرى بعامة؛ هذه السمة تتجلى بين السطور قد تكون ظاهرة واضحة عند بعض المتعصبين منهم كما نرى عند جولدتسيهر ومارتن بلسنر، وقد تكون مستترة خفية تحتاج من الباحث أن يقرأ مابين السطور، وكما كان يعلمنا د.زكي نجيب محمود أن هناك «كلمات تحتها كلمات» وعلينا أن نقرأ ما أضمره الكاتب في نفسه بعد أن ساق لك كلمات تستطيع أن تستنبط منها ما لم يقدر أن يبوح به في الظاهر «تقية» وخوفا من الآخرين، وهذا العداء الدفين يرجع إلى:

أ- أسباب تاريخية ربما ترتد إلى رواسب التاريخ القديم حينما نكل بهم بعض الفراعنة وأخرجوهم من مصر وشردوا بهم، وكذلك الفرس والرومان الذين دمروا هيكلهم وشردوا بهم.

ب- أسباب دينية، كما نرى في فضح القرآن لمواقفهم وبسط حيلهم، وكشف سريرتهم الخبيثة ونفاقهم المستمر، وطرد الرسول ﷺ للجاليات اليهودية التي كانت تسكن بجواره في المدينة بعد مكائدهم المعروفة وتحالفهم مع المشركين،

ج- أسباب حديثة وعصرية، تكمن في الإرث العدائي الذي ساد دراسات المستشرقين الغربيين الأوائل ونشر هذه الروح في أوربا للتنفير من الإسلام والمسلمين وتأثر المستشرقين اليهود بهذا التراث المشحون بالعداء وتسربه إلى اللاشعور إذ يصبح موجها لمنهجهم، هذا أولا،

ثانيا: الصراع العربي الإسرائيلي المحتدم والمستمر والذي لا يبدو له نهاية في المنظور القريب، وانعكاس هذا الصراع الدامي على نفسية المستشرقين اليهود لاسيما الذين يعيشون في أوربا وأمريكا، ثالثا، المقارنة بين إسرائيل الديمقراطية وأحزابها القوية وجامعاتها الراقية وصناعاتها المتقدمة وجيشها الرادع، والعرب المتخلفين، أصحاب

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ت، أبو ريدة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٩٦ قاسم عبده قاسم: اليهود في مصر، ص ١٢/ ١٥.

النظم الشمولية المستبدة، والثروات الضائعة والمنهوبة وتبعيتهم للغرب تبعية ذليلة، فضلا عن أنهم سلبيون لا يشاركون في بناء الحضارة الحديثة.[١]

خامسا : فقدان الانتماء فقدانا كاملا أي الشعور بعدم الانتماء أو الولاء للأوطان التي يعيشون فيها؛ هذا إحساس مدمر يعانيه المستشرق اليهودي، شعور كامن داخله بالاغتراب بالمعنى الفلسفي، الصراع بين الوجود والماهية، بين الأنا والآخر، شعور بالتمزق الداخلي، الإحساس العميق الدائم بالقلق والذي أسميته «بالقلق الفندقي» نسبة للإنسان الذي ينزل في فندق، فهو يشعر داخله أنه حضر هنا لبضعة أيام أو أسابيع لكنه في نهاية المطاف سوف يرحل، وهذا الشعور ذاته هو الكامن داخل ضمائر هذا الفريق من البشر.فعلى الرغم من أنهم جميعا ولدوا في أوطان راقية ومتقدمة وثرية ومتحضرة، إلا أنهم لا يشعرون بالأمان ولا يتذوقون طعم الطمأنينة، و يفتقدون الإحساس بالانتماء إلى هذه الأوطان مثل النباتات المتسلقة لا تستند في وجودها إلى ذاتها، إنما تستند في وجودها إلى الأغيار، ولكن الإشكالية أن اليهود يشعرون أيضا بالغربة مع هذا الغير، أضف إلى ذلك لا يحاولون الاندماج داخل نسيج المجتمع لكي يشعروا بالدفء الاجتماعي ويطبعوا علاقاتهم مع محيطهم، وإذا حاولوا لم يشعروا بالانسجام، إنه عذاب أبدي مثل عذاب بروميثوس سارق النار للإنسان.يقول د.المسيري: «إحساس اليهودي الدائم بالنفي ورغبته في العودة» هي عبارة تُبلوِّر النموذج الكامن وراء كثير من الدراسات التي تتناول الجماعات اليهودية في العالم، إذ يتم رصد أعضاء الجماعات اليهودية وتحركاتهم وكأن عندهم إحساساً بالنفي الأزلي ورغبة دائمة في العودة، وكأن هذا الإحساس وهذه الرغبة هما جزء من جوهر يهودي ثابت ومن المكونات الأساسية لطبيعة اليهود البشرية. واليهودي حسب هذا النموذج التفسيري هو غريب ينتقل من مكان لآخر (ومن هنا صورة اليهودي المتجول)، الذي يحس بأنه في المَنْفَى، ومن ثم فعنده رغبة عارمة دائمة في إنهاء حالة النفي هذه والعودة إلى وطنه الأصلي «فلسطين»[٢].

(١) إدوارد سعيد : الاستشراق ، ترجمة د.محمد عناني ، ط، ، رؤية للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٦، ص ٧٨

(٢) المسيري : الموسوعة اليهودية .

هذا ما نراه عند معظم المستشرقين الذين أوردنا سيرتهم، سفر دائم وارتحال متواصل، وشك قائم، وقلق خفي كأن هناك رقيب يتبع خطواتهم، أو «طائر الرخ» يطارد وجودهم، وقد عبر عن ذلك ألبـير ميميـه (١٩٢٢) وهو مؤلف وكاتب مقال وعالم اجتماع فرنسي يهودي تونسي الأصل. وُلد في تونس لعائلة يهودية من قبائل البربر؛ يقدم صورة اليهودي باعتباره شخصية كامنة في الظل فلا هي مندمجة تماماً ولا هي راغبة في التخلي عن خصوصيتها، تعيش دائماً على هامش الأحداث التاريخية العالمية[١].

من الجدير بالذكر أن د.المسيري يرى أن قضية الانتماء مسألة نسبية فالانتماء الحقيقي لليهودي هو انتماؤه للعقيدة اليهودية، وهناك جماعات يهودية تعيش في أمريكا تشعر بالانتماء لها ومستعدة للاندماج فيها والدفاع عنها، وكذلك في الاتحاد السوفيتي، وأحيانا يكون الانتماء لرأسماله أينما ذهب وحيثما حل؛ ومن ثم، أصبح الانتماء السياسي والاقتصادي لليهودي إلى وطنه الفعلي، أما انتماؤه الديني والثقافي فلوطنه المثالي أو الوهمي، أي الدولة الصهيونية.[٢]

سادسا: شهوة الحصول على المال والرغبة العارمة في تكديس الثروات؛ من الحقائق المعلومة شهرة اليهود في السيطرة على اقتصاد أي دولة يحلون فيها وتمركزهم في البنوك، واشتغالهم بالربا و في مهنة الصرافة وبيع الذهب والفضة؛ وبالجملة محاولة الاستيلاء على مفاصل اقتصاد الدولة التي يحلون فيها وعمودها الفقري.

يقول أحد المؤرخين عنهم: «يعمل العديد من اليهود المصريين عامة» صرافين؛ بمعنى مصرفيين وصيارفة، ويشتهرون باستقامتهم وقد يزاول بعضهم مهنة الصياغة»[٣].

ويؤكد الفكرة السابقة أحد المستشرقين بقوله: لم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال؛ إذ كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام

(١) المسيري : الموسوعة اليهودية ج٣/ ٢٧٢.
(٢) المسيري : الموسوعة اليهودية ج٢/ ٩.
(٣) إدوارد لين : عادات المصريين المحدثين ص ٥٧٢ ، وراجع أيضا - هيكل : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ج١ ، إذ أشار إلى سيطرتهم على اقتصاد تركيا ومصر في ألثلاثينات والأربعينات ص٧٠ / ٧١ / ١٥٥ وما بعدها .

من اليهود، في حين أن أكثر الأطباء والكتبة من النصارى.[١]

وهذا الملمح ذاته ينطبق على المستشرقين اليهود.وهذا أمر واضح للعيان لا يحتاج إلى برهان أو دليل من الكتب والدفاتر أو الاستشهاد برأي هذا أو ذاك، لأن الواقع أكبر بيان وأصدق لسان؛ فهم يتميزون بحرصهم البالغ على تكوين ثروة كبيرة، والسعي الحثيث في سبيل تحقيق هذا المطلب، والانتقال من دولة إلى أخرى للحصول على عمل مجز يدر عليهم أكبر دخل ممكن، ولذلك يلاحظ أن عددا كبيرا منهم أمّ جامعة القاهرة والتحق للعمل فيها وكما رأينا أن الجامعة كانت تمنحهم أجورا عالية، ومنهم من التحق بالجامعات الأوربية والأمريكية، ونشروا العديد من البحوث والمقالات في المجلات التي كانت تمنحهم مكافآت لا بأس بها وكذلك تحقيق المخطوطات وطبعها في كتب وتسويقها في العالم العربي الإسلامي والأوربي وكانت المؤسسات العلمية والمعاهد الأكاديمية تقف ورائهم، ومجموعة ثالثة عملت في التنقيب عن الآثار وحققوا ثروات طائلة من بيع الرسوم والمخطوطات والآثار التي حصلوا عليها.

على أن د.المسيري يرى أنها قضية نسبية لا نستطيع أن نطلقها على جنس أو طائفة بعينها، لأن القضية ترجع إلى عادات المجتمع ونظامه الاقتصادي وثقافته ووظيفة الجماعة في المجتمع، فالدارس لتواريخ الجماعات اليهودية سيكتشف أن حب اليهود للمال لا يختلف في معدله كثيراً عن حب أعضاء الأغلبية له. فيهود الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا يتصفون بصفات الكرم والسخاء (إلى درجة التبذير)، شأنهم في هذا شأن العرب في عصرهم، بينما نجد أن يهود الولايات المتحدة يتصفون بأنهم أكثر حرصاً وتقتيراً.[٢]

سابعا: هاجس الخوف المسيطر على نفوسهم و تغلغله في أعماقهم.، وعدم الشعور بالأمان، والتوجس المستمر من حركة المجتمع المحيط بهم، وتوقع حدوث الشر ووقوع الأذى بهم من كل حدب وصوب.

١- إن الناظر في سيرة هذه الجاليات اليهودية والمتتبع لمسيرة حياتهم والدارس

(١) متز : الحضارة الإسلامية ، ص ٦٥، قاسم عبده قاسم : اليهود في مصر .
(٢) المسيري : الموسوعة ج٢/ ٣.

لتاريخهم، يلحظ بجلاء هذا الهاجس المترسب في أعماقهم، الغائر في وجدانهم، المسيطر على نفوسهم، شعور غريب يطارد حياتهم، يوجد قلق داخلي يحرك جوانيتهم ويهز نفوسهم، و يسلب الراحة والطمأنينة من حياتهم، إنه شعور مبهم أحيانا وواضح أحيانا أخرى، يتسلل إلى ضمائرهم، فيتوجسون الشر من الآخرين ووقوع الإيذاء من كل من يقترب منهم.

٢- المتتبع لآيات القرآن يستطيع أن يلمس ذلك بيسر وسهولة، فقد أشارت الآيات الكريمة، إلي هذا الهاجس النفسي الذي غمر حياتهم وسيطر على سلوكهم.

أ- فبعد أن ذكرهم موسي بنعم الله عليهم في خطاب لطيف، شحذ ذاكرتهم بألمع الذكريات وأكبر البشريات، فطلب منهم أن يستجمعوا قواهم لدخول الأرض المقدسة ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۞ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**﴾ [المائدة: ٢٢].

ولكن الرد جاء مخيبا للآمال، وتأكيدا لطبيعتهم السقيمة وهلعهم المستمر، وخوفهم من الأقوام الجبارين أن ينالوا منهم: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢٤].

إنهم يقررون في عناد واضح وهوان ظاهر واستخذاء ذليل، يقول سيد قطب: هكذا يخرج الجبناء فيتوقحون، ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون!» [(١)]

ب- وهكذا في باقي مواقفهم مع الملك طالوت الذي أرسله الله لكي يكون ملكا عليهم ويقودهم في حرب شريفة، لاسترداد حقوقهم، فقالوا من طرف ألسنتهم نعم سنحارب لأننا ظلمنا وأخرجنا من ديارنا، فلما أرسله الله، سارعوا بإلقاء الحجج واختلاق الأعذار ﴿**قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٤٧].

---

(١) الظلال ج٢/ ٨٦٩

هكذا اعترضوا على الاصطفاء الإلهي وراحوا يتحججون والرعب يملأ قلوبهم، ولما وجدوا أن لامناص من الحرب، سارعوا قائلين ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أما الفئة القليلة المؤمنة بربها وبوعده للصابرين الصادقين، فهتفوا قائلين: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۞ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩، ٢٥٠].

جـ- أما إذا نظرنا في موقفهم من الموت، فهو الهلع بذاته والخوف الملازم لحركتهم، وقد تحداهم الله في إدعاءاتهم العريضة حينما زعموا أنهم أبناء الله والصفوة المختارة من البشر وأنهم وحدهم المهتدون، فرد عليهم أن يطلبوا الموت، إذ إن الحبيب يسعى للقاء حبيبه، فلنصغي لهذه الآيات المباركات ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤- ٩٦].

تقرر الآيات أنهم أحرص قوم على «حياة» وتنكير كلمة «حياة» لها دلالة لا تخفى على لبيب؛ فهم ينشدون أي حياة؛ ولو كانت حياة المذلة والعبودية، حياة الرق والهوان، يقول سيد قطب: «أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق!حياة فقط حياة ديدان أو حشرات حياة والسلام!إنها يهود في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء.وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة.فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعنت الجباه جبنا وحرصا على الحياة...أي حياة» [(١)]

٣- تؤكد الحوادث التاريخية المسلك نفسه، والدارس لمسار القبائل اليهودية

(١) الظلال ج١/ ٩٢، ؛ تتفرد الشخصية اليهودية بصفة الخوف المدمر والهلع الشنيع ، والحيطة والحذر ، وقد جندت في سلاح الاستطلاع بعد هزيمة ١٩٦٧ مع مليون شاب من أمثالي، باللواء ١٤ مدرع وعشت سنوات أقوم بمراقبة تحركات الجنود الإسرائيليين في منطقة الدفرسوار وجبل مريم ، علي جبهة القتال ، ورأيت مدي الجبن والخوف الذي يسيطر علي الجندي الإسرائيلي علي الرغم من أنه كان منتصرا ومحتل لأراضينا .

والأماكن التي حلوا بها واستقروا فيها ردحا من الزمن، يلحظ هاجس الخوف المتغلغل في أعماق نفوسهم، وتوجسهم من كل قادم والرعب الذي يجتاحهم من أي تحرك يتعارض مع مسلكهم، ويتناقض مع تصرفاتهم، وأبرز مثال على ذلك؛ حينما ظهر الرسول ﷺ في مكة وبشر بالدين الجديد، وكان اليهود يسكنون في يثرب، ويعلمون من كتبهم وأقاويل رهبانهم أن هناك رسولاً قادماً، وكانوا يتعالون على العرب أنهم أصحاب دين في حين أن العرب وثنيون، ومع كل هذه الأدلة، فقد وقفوا من الرسول ﷺ موقف المعارض، وخافوا من دعوته، وملأ الخوف قلوبهم وذهبوا يكيدون له في الخفاء والعلن، وينسجون المؤامرات في وجه دعوته.

٤- تذكر المصادر التاريخية أن الجيش الألماني بقيادة «روميل» حينما تقدم إلى منطقة العلمين، سارع أغنياء اليهود الذين يعيشون في أمان واستقرار بمصر إلى بيع عقارات وأملاك «بسعر التراب» كما يقولون، إلى باشوات مصريين بثمن لا يزيد عن مائتي ألف جنيه، في حين أن هذه الأملاك قدرت بأربعين مليون جنيه استرليني، وهرع اليهود هاربين إلى السودان ومنه إلى جنوب إفريقيا. وحينما هزم روميل، وانتصر الحلفاء، عاد اليهود مرة أخرى إلى مصر.[1]

ودلالة هذه الحادثة تشير إلى الهلع البالغ الذي أصاب الجالية اليهودية التي كانت تعيش في مصر وتسيطر على معظم البنوك وتدير العديد من المصانع فضلا عن امتلاكها بعض الصحف وشركات السينما والإعلان، ومئات من الأفدنة الزراعية الخصبة، وكانوا يمثلون فئة اجتماعية لها حقوقها داخل الدولة، ويعاملون معاملة طيبة فهم مصريون ولدوا على أرض مصر التي اتسع صدرها لكل الديانات والأجناس، ليس هذا فحسب، بل كان منهم وزراء وأعضاء في مجلس الشيوخ المصري، ومع كل هذه العوامل التي تؤكد رسوخ أقدامهم داخل المجتمع، وأنهم يحتلون مواقع مؤثرة وحساسة للغاية، لم يشعر اليهود بالأمان، وخلت ضمائرهم وعقولهم من أي شعور بالانتماء لهذا الوطن، وفي أول خطر تعرض له، انفجرت ينابيع الخوف في أعماقهم، وأصابهم الرعب الشديد فحملوا «ما غلا ثمنه وخف وزنه» التعبير الشهير لجورجي زيدان (ت١٩١٤) في قصصه، باعوا

(١) هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ج١/ ١٥٧ /١٥٨، وأيضا تاريخ يهود النيل ص ١٦.

أملاكهم وحولوا ثرواتهم إلى البنوك الخارجية وحزموا أمتعتهم وولوا هاربين مذعورين، مكررين للمصريين المقولة القديمة التي قالوها لموسي: اذهبوا أيها المصريون قاتلوا الألمان إنا هاربون.صدق المولى سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦][(١)].

إننا جميعا نحب الحياة؛ حياة العزة والكرامة والبطولة، أما حينما يتعرض الوطن للأخطار فكل منا مستعد أن يدفع حياته ثمنا زهيدا فداء لرفعته وحريته واستقلاله، «إن الحرص علي الحياة واجب طبيعي، وواجب عليه لا عيب فيه، وإنما يلام لأنه يحرص علي كل حياة وأي حياة، ولو قبل الهوان وهرب من الواجب، وامتنعت عليه وسائل العمل النافع ووسائل الرجاء في صلاح الأمور»[(٢)].

٥- اشتهر اليهود ببناء الحصون والعيش داخل جدران محصنة، وإقامة الأسوار حول القرى أو المدن التي يقطنونها، وهذا ما كان منهم حينما استقروا في يثرب إذ كانت قبائلهم تشكل نسبة كبيرة من سكانها، أهمها قبائل بني القينقاع وبني قريظة وبني النضير وغيرهم، وقد عرفوا ببناء الحصون القوية وسكنوا داخلها، يراقبون ما يحيط بهم في خوف مستمر وهلع بالغ، ولما وجدوا الغلبة والقوة مع الرسول ﷺ تحالفوا معه، وعقدوا المعاهدات على نصره ومحاربة أعدائه، ثم سرعان ما نقضوا المعاهدات ونكثوا بالوعود السابقة والأيمانات المغلظة، واغتروا بحصونهم المنيعة وقلاعهم القوية وآطامهم المرتفعة؛

يقول سبحانه عنهم ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [الحشر: ٢].

هذه السياسة جزء من التكوين النفسي، وعقيدة ثابتة عند اليهود، ولا غرو أن نري العقلية ذاتها بعد انتصار إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧، إذ قامت إسرائيل ببناء ما سمي

---

(١)كان في مصر جالية يهودية منذ عصور قديمة ، وصل عددهم سبعة آلاف في عهد الخديوي إسماعيل، ثم تزايد عددهم مع الاحتلال البريطاني ، إلى أن وصل (٦٤)ألف في تعداد (١٩٢٧)، هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ، ص ١٥١ .

(٢) العقاد : أنا ص٢٠١.

بخط «بارليف» وهو عبارة عن نقط حصينة علي طول شاطئ قناة السويس؛ تتكون من ملاجئ تقع تحت الأرض بعمق أربعة أمتار، ومغطاة بقضبان حديدية عليها طبقة قوية من الأسمنت المسلح ينزل إليها الجندي بسلالم، علاوة على الساتر الترابي العالي الذي أقيم على الشاطئ مباشرة و أحاط بهذه النقط، وكان ارتفاعه يصل إلى أكثر من عشرين مترا ويخرج من هذه النقط خراطيم تقذف النابالم الحارق لكل من يقترب منها.

وبعقلية بني النضير وبني قريظة ذاتها أقام الكيان الإسرائيلي جدارا عاذلا حصينا يفصله عن فلسطين، خوفا من الفلسطينيين البؤساء الذين لا يملكون إلا أسلحة خفيفة، في الوقت الذي يعد جيش الكيان الإسرائيلي أقوى قوة في المنطقة تسليحا وعتادا وتنظيما وتدريبا.

ويصفهم الروائي الفرنسي مارسيل بروست (١٨٧١- ١٩٢٢) وهو ينحدر من أب كاثوليكي وأم يهودية: «بجنون الإحساس بالاضطهاد والارتياب الشديد بالآخرين».[١]

وإذا عاشوا داخل مدن مزدحمة بالسكان، انعزلوا في حارات منفصلة عن باقي أفراد المجتمع، واستقلوا بعاداتهم وتقاليدهم منطويين على ذواتهم في شرنقة ضيقة، والحارة عبارة عن طريق مسدود ليس له إلا منفذ واحد وهو ما سمي في أوربا «بالجيتو اليهودي»[٢].

يقول ادوارد لين: «يعيش اليهود في مصر عيشة منعزلة هادئة، ونادرا ما يجدون أشخاصا من غير أبناء طائفتهم يزاملونهم.»[٣]

ويؤكد المسيري عزلة اليهود بقوله: مما يُذكَر أن البورجوازية الأجنبية في مصر، ومن بينها العائلات اليهودية، كانت تعيش في عزلة اجتماعية وثقافية عن أغلب أفراد الشعب المصري.[٤]

---

(١) الموسوعة اليهودية ج٣/ ٢٠٦.

(٢) «الجيتو» مكان داخل المدينة أو خارجها محاط بسور عال له بوابة (أو أكثر) تُغلَق عادةً في المساء. وكان من غير المصرح به لأعضاء الجماعات اليهودية، في بعض المراحل التاريخية ببعض الدول، أن يظهروا خارج الجيتو في يوم الأحد أو في أيام أعياد المسيحيين. وكان الجيتو بأسواره العالية يهدف إلى عدة أشياء متناقضة، منها: حماية اليهود كجماعة وظيفية وسيطة، وسهولة تحصيل الضرائب منهم، ومراقبتهم وعزلهم وفصلهم عن الأغلبية المسيحية. كما كان يضمن ألا يهرب أعضاء الجماعة إلى بلد آخر، فقد كانوا مادة استعمالية وأداة إنتاج وإدارة يستفيد الإمبراطور أو الحاكم من وجودها. (الموسوعة اليهودية .ج٤/ ٢٠٥).

(٣) عادات المصريين وتقاليدهم ، ص ٥٧٢ .

(٤) الموسوعة اليهودية ج٣/ ١٣٩.

على أننا نحب أن نؤكد أن الحكومة الإسلامية لم تفرض في المدن أحياء خاصة لليهود والنصارى بحيث لا يتجاوزونها أو تحدد إقامتهم فيها، وإن فضل أصحاب كل دين أن يعيشوا متقاربين.على حد تعبير آدم متز.(١)

٨- الهجرة المستمرة من دولة إلى أخرى، وانتفاء الشعور بالانتماء للوطن الذي ولدوا على أرضه، واختفاء عاطفة الحب التي تشدهم إلى ترابه وأهله وتراثه.

فالقارئ لسيرة هؤلاء المستشرقين يلاحظ أنهم ولدوا في دولة ما، ودرجوا على أرضها واستظلوا بسمائها ونعموا بخيراتها وتعاملوا مع أهلها وتعلموا لغتها ودرسوا في مدارسها واحتلوا وظائف مرموقة في جامعاتها ومؤسساتها.ومع كل هذه المقومات التي تربطهم بهذا الوطن، وتعمق أحاسيس المودة تجاهه، وأواصر الأخوة مع الآخرين، وتدفع الإنسان السوي أن يدافع عن وطنه حينما يتعرض لأي خطر، ويدفع حياته رخيصة في سبيل هذا الوطن العزيز الحبيب، فإن هؤلاء القوم لا يحملون أدنى عاطفة تجاه أوطانهم التي ترعرعوا فيها، ولا توجد رابطة وطنية تعمق جذورهم ولا حتى شعور أخلاقي يدفعهم أن يفكروا قبل أن يغادروه ويتركوه إلى دولة أخرى؛ فهم مثل ساكن الفندق عنده شعور طاغ بأنه سيرحل مهما طال مكوثه فيه، إذ يعلم أنه بصدد مهمة محدودة الأجل ويعلم أنه إن آجلا أو عاجلا سوف يفارقه ويحمل حقائبه ويرحل، فإذا جاء لأحدهم عرض مغر وأجر مجز في دولة أخري لملم حاجياته وحمل أمتعته وولى وجهه صوب البلد الجديد، وعاش فيه أيضا على الهامش دون أن يشعر تجاهه بأي شعور إنساني، فهو يحمل داخله «شعور فندقي».

ويشير د. المسيري إلى أن الشاعر هاينريش هايني (١٩٧- ١٨٥٦)وهو من أشهر شعراء ألمانيا الرومانسيين، غير جنسيته ست مرات دون أن يغير مكان إقامته، مما أضعف هويته وأفقده الشعور بالانتماء إلى وطنه ألمانيا.(٢)

وكذلك إذا تعرض لأي مضايقات من هذه الدولة أو إساءة، فكر سريعا في الانتقال، دون أن يراجع نفسه أو يفتش في عواطفه، إذ لا توجد عواطف بالمرة ولا مشاعر ودية أو

(١) الحضارة الإسلامية ج١/ ٨٧.
(٢) الموسوعة اليهودية ج٣/ ٢٠٤.

رابطة انتماء تشده إلى هذه الأرض، ومن ثم ينتقل إلى المكان الجديد؛ وهذا ما نراه في سيرتهم، فأغلبهم ولدوا في دولة ما، ثم تركوها وانتقلوا إلى دولة أخري ثم غادروها وتجنسوا بجنسية مخالفة للأولى وهكذا.

هذه الرحلة المستمرة، سمة من سمات كافة الجاليات اليهودية، فاليهود الذين كانوا يعيشون في البرتغال في أمان واستقرار، حينما تعرضوا لأبسط المضايقات ولوا وجههم إلى ألأندلس، وعاشوا عيشة ممتازة في ظل الدولة الإسلامية تميزت بالحرية والتسامح، وشاركوا في بنائها وقاموا بدور لا بأس به في ترجمة علوم المسلمين ونقلها إلى الغرب.

يقول رينان: لم يظهر قط فاتحون ساروا بالتسامح والاعتدال نحو المغلوبين إلى مدى أبعد مما سار عرب الأندلس، وعدت لغة العرب منذ القرن العاشر (الرابع الهجري) اللسان المشترك للمسلمين واليهود والنصارى.[١]

ويقول أحد الباحثين: «لاشك أن اليهود الذين تقوم وثائق جنيزة بتوصيفهم لنا (أي الذين عاشوا على الأرض العربية)- كانوا في وضع جيد مقارنة بإخوتهم في الدين الذين كانوا يعيشون في العصر ذاته على الأرض المسيحية»[٢].

وحينما أفلت شمسهم، وقام فرديناند بإخراجهم وشرد بالمسلمين، فقد اليهود الحرية التي تمتعوا بها تحت حكم المسلمين، «وزحف ديوان التفتيش عليهم وخيرهم بين التعميد ومزاولة الشعائر المسيحي، أو النفي وتجميد أموالهم»[٣] فهاجروا إلى المغرب ومصر وتركيا، وهكذا في دورة كونية لا تنتهي، من فرنسا إلى ألمانيا ومن ألمانيا إلى هولندا فهم مثل «سيزيف» في الأسطورة اليونانية، كتب عليهم الشقاء جزاء وفاقا لما قدمته أيديهم من سوء الأعمال وشر الأفعال، وإشاعة الفساد في الأرض.

***

(١) ابن رشد والرشدية ص١٦٣.
(٢) جاك حاسون : تاريخ يهود النيل ص ٧٠.
(٣) ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله المشعشع ، مكتبة المعارف، بيروت، ص١٨٦.